﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويلاحظ أن الذى دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا مع موسى.

وقد قلنا من قبل: إننا إن نظرنا إلى الأصالة فى الرسالة لوجدنا موسى - عليه السلام - هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده[1] ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة.

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشىء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشىء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه - أى: هارون - قد دعا بهذا الدعاء سراً.

والدعاء معناه: أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا فى أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول: إن لى رباً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبِّب الأعلى سبحانه.

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى:

---

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] .

﴿ ..إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فَرَدَّ موسى عليه السلام:

﴿ .. كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

أي: لا ترتِّبوا الأمر بترتيب البشر؛ لأن معي رب البشر، فجاءه الإنقاذ:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ[1] (٦٣) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذي كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء، ومثل هذا نجده في غير الرسل ونسميه «التخاطر»، أي: التقاء الخواطر في لحظة واحدة.

ومثال ذلك في التاريخ الإسلامي، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشغولاً بالتفكير في جيش المسلمين المقاتل في إحدى المعارك، وكان عمر في المدينة يخطب على المنبر، فإذا به يقول فجأة: «يا سارية[2] الجبل» وهي كلمة لا موضع لها في منطق الخطبة، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذي يحارب، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر؛ فانحاز إلى الجبل.

---

(١) الفرق: الجزء. والطود: الجبل الكبير. [تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٦)].

(٢) هو سارية بن زنيم الدئلي. أمَّره عمر بن الخطاب على جيش وسيَّره إلى فارس سنة ٢٣ هـ، فوقع في خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم في بطن واد قد همُّوا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال في أثناء خطبته «يا سارية: الجبل، الجبل» ورفع صوته فألقاه الله في سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدو من جانب واحد، ففتح الله عليهم وانتصروا. [الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٥٢، ٥٣].

ويقال فى هذه المسألة : إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً فى الهاتف فيرد عليك الشخص الذى تريد الكلام معه قائلاً : لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً ، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث فى حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث فى الأمور الصفائية ؛ وفى أرقى درجاتها وهى النبوة ؟

أو أن الذى دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمِّناً [1] ، والمؤمِّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمِّن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هى تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هى موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمَّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ **قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا** ..(٨٩) ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال.

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أى دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضى تحديد الميعاد الذى تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذى بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة فى الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر.

---

(١) التأمين : هو قولهم آمين وراء الداعى . ومنه التأمين فى الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً [1] (١١) ﴾ [الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع.

وهو سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ [2] (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً.

إذن: فالقدرة العليا رقيبة علينا، وتعلم ما في صالحنا؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه.

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [3] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ [4] ..(١١) ﴾ [يونس]

---

(١) عجولاً: صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة. والمراد: أن الإنسان مجبول على حب الخير، وعلى العجلة في طلبه لنفسه، ويلح في الدعاء، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجهله أنه خير. قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ..(٣٧) ﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ..(١) ﴾ [النحل].

(٢، ٣) عجل يعجل - عجلاً وعجلة. واستعجل استعجالاً. قال تعالى: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ..(١٥٠) ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر: طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة. وعجل الأمر: سبقه. [القاموس القويم].

(٤) الأجل: المدة من الزمن، والمراد: العمر.

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه [١] ، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس فى ذلك شر بالنسبة للأم.

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى . فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ .. قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

[يونس]

أى : ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدْخِلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

---

(١) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى ، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : «من هذا اللاعن بعيره» ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك [1] أن تكون من الجاهلين (٤٦) ﴾

[هود]

أي: كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفَّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ [2] (٩٠) ﴾

قال الحق سبحانه:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. (٩٠) ﴾ لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : النصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُليِّن قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٦٦) : ﴿ إني أعظك .. (٤٦) ﴾ [هود] . أي : إني أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين . أي: الآثمين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين .

(٢) أتبعهم: اتبع أثرهم ؛ ليدركهم. وكان موسى وقومه بنو إسرائيل في خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً، وتبعهم فرعون مصبحاً في ألفي ألف وستمائة ألف. بغياً وعدواً: أي: في حال بغي وظلم واعتداء. وقال المفسرون: بغياً: طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، «وعدواً» في الفعل. أدركه الغرق: ناله ووصله. قال آمنت: أي: صدَّقت ، أو آمنت - والإيمان لا ينفع حينئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس. [ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٠٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف].

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ .. (٦٣) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق [1] هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز.

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية.

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

---

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه فى العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا فى الممرات التى بين المياه التى تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجى ويهلك بالشيء الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام:

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان]

أى : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ..﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها؟

لا ، لم تكن هذه هى نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع : ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ..﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

أى : أنه اتباع رغبة فى الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله:

---

(١) قال الأزهرى : رهواً ساكناً من نعت موسى ، أى : على هَيْنتَكَ . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرقاه ساكنين فقال لموسى : دع البَحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر . [ذكره ابن منظور فى اللسانَ ، مادة : رها] فقوله تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ .. (٩٠) ﴾ [يونس]

والإدراك: قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندى من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجرى إلى الأحداث :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1] (٩٠) ﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2]. وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى.

لكن لو قلت - مثلاً: «آمنت أنك رجل طيب» فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب:

﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) وأنا من المسلمين ، أى: من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة. وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان.

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٥).

وهنا يأتى القول على لسان فرعون:

﴿ . . آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾

[يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [(١)]

وهذا يعنى : أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين. إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء فى غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد فى الأرض.

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة [(٢)] بعيدة عن الشر الذى حاق [(٣)] به.

(١) قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل: هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثَمَّ قول باللسان ، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة. ونظيره: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ . . (٩) ﴾ [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم. والكلام هنا هو كلام القلب. [ذكره القرطبى فى تفسيره ٤/ ٣٣٠٦] - بتصرف.

(٢) النجوة: ما ارتفع من الأرض.

(٣) حاق به الشىء يحيق حيقاً: نزل به ، وأحاط به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فَعَلَه. قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ . . إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾ [الأحقاف].

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود .

وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار فى أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار (١) .

إذن : فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى فى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا فى مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رِجْليه فى حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت . . إلى آخر الخرافاتَ التى ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس] .

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوَّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة.

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول: جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهى والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه:

﴿ ..ثُمَّ أَنَابَ (١) (٣٤) ﴾ [ص]

أى: أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه:

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (٢) ..(٩٢) ﴾ [يونس]

(١) أناب: رجع إلى الله تعالى بالتوبة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٢) ننجيك: نخرجك من البحر. ببدنك: بجسدك الذى لا روح فيه. لتكون لمن خلفك: بعدك. آية: عبرة ؛ فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك. وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه. [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ اليزيدى وابن السميقع «ننحّيك» بالحاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليروك.

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أنَ يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أي حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك في أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقي من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي..(٣٨)﴾ [القصص]

وبعض من باحثي التاريخ يقول: إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة.

ونحن نقول: إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا: إن علة حفظ الأبدان هي عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها.

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ [1] (١٠)﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه في نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [2] (١٤)﴾ [الفجر]

(١) قيل في معنى ذي الأوتاد: لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبري: ص ٥١٣]. وذكر في تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يَتدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه. وفي [كلمات القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف] الأوتاد: الجنود أو المباني القوية.

(٢) إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها. [كلمات القرآن].

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظيفة «عزيز مصر» - أي : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. (٥٠) ﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَشَفَ الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» في التاريخ المصري إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيد» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة» إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أي اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقي ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [1] (٩٢) ﴾ [يونس]

---

(١) وإن كثيراً من الناس : أي : أهل مكة . عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أُذن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر فى آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ(١) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذى رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذى تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التى تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التى تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذى لاحظ أنه كلما غطس شىءٌ فى المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشىء الغاطس فيه .

(١) كأين من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة فى الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذى اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً [1] من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التى تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها بعض التجارب فى معمله إلى أن اكتشف «البنسلين» .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التى تأتى فى القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛ فعلى الناس أن يسلِّموا ويقولوا : «آمنا» ، لا أن يظلوا فى حالة إعادة للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر فى الأمور المادية قد تواصلت ؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التى توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا فى الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولَوَصَل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها) : الأصل . والأصيص : أصل الدَّن (إناء) أى : أسفله ويقال : هو كهيئة الجر له عروتان يُحمل فيه الطين . وفى الصحاح : الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين . [لسان العرب : مادة (أ ص ص)] . وتطلق هذه الكلمة على أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات .

إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه.

ونحن نجد ذلك في أمور ضارة مثل: الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل: لماذا تُحرَّم ؟

وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١) ﴿٩٣﴾ ﴾

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى: البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن.

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص.

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثريُّ فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته.

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة.

---

(١) بوأنا: أنزلنا. مبوأ صدق: منزل كرامة وهو مصر والشام. فما اختلفوا: بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم. [تفسير الجلالين: ص ١٨٧ - بتصرف].